بسم الله الرحمن الرحيم

# الحوار الحضارى ضرورة انسانية

بقلم
أ.د/ احمد عبد الرحيم السايح

## الحـــوار الحضـــارى ضرورة إنســـانية

بداية يحسن بنا أن نعرض لمفهوم الحوار. ومفهوم الحضارة.حتى نتعرف على حوار الحضارات وننطلق لرؤية واضحة تكشف عن ضرورة الحوار للإنسان، وحاجة الإنسان إليه.

والحوار: الرجوع عن الشئ. والى الشئ، يقال: حار إلى الشئ ، وعنه حوراً ومحاراً ومحاورة: رجع عنه وإليه. وفى الحديث:«من دعا رجلاً بالكفر وليس كذلك حار عليه» أى رجع إليه مانسب إليه. والمحاورة مراجعة المنطق، والكلام فى المخاطبة.[١] قال تعالى:« قال له صاحبه وهو يحاوره »[٢] أى وهو يراجعه الكلام ويجادله.[٣]

والتحاور: التجاوب لذلك كان لامندوحة فى الحوار من متكلم ومخاطب، ولا بد فيه من مراجعة الكلام وتبادله وتداوله. وغاية الحوار: توليد الأفكار الجديدة فى ذهن المتكلم.لا الاقتصار على عرض الأفكار القديمة وفى هذا التجاوب توضيح للمعانى، واغناء للمفاهيم يضفيان إلى تقدم الفكر.[٤]

وإذا كان الحوار تجاوباً بين الأضداد كالمجرد والمشخص، والمعقول والمحسوس. سمى جدلاً. والجدل هو النقاش والخصومة. وهو منطقياً: قياس مؤلف من مقدمات مشهورة أو مسلمة. وغرضه إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدارك مقدمات البرهان[٥]

والجدل أصلا هو فن الحوار والمناقشة. قال افلاطون:« الجدلى هو الذى يحسن

---

١- ابن منظور، لسان العرب،جـ ١ ص ٧٥٠، ط دار العرب ، بيروت.

٢- سورة الكهف. الاية رقم ٣٧.

٣- سعيد حوى، الاساس فى التفسير،جـ٦ص٣١٨٤،ط.دار السلام. القاهرة١٤٠٥هـ.

٤- انظر حسين حمادة، الحوار القرآنى، مجلة المعارج،المجلد الأول،ع٨،ص٣٦، بيروت، ١٤١٢هـ.

٥- المصدر السابق، ع٨،ص٣٦.

السؤال والجواب،وغايته الإرتقاء من تصور إلى تصور، ومن قول إلى قول ، للوصول إلى أعم التصورات، وأعلى المبادئ.

واقتبس المحدثون عن إفلاطون. فأطلقوا الجدل على الارتقاء من المدركات الحسية إلى المعانى العقلية،ومن المعانى المشخصة إلى الحقائق المجردة، ومن الأمور الجزئية إلى الأمور الكلية.

وقبل إفلاطون زعم سقراط: أن العلم لايعلم، ولا يدون فى الكتب. بل يكشف بطريق الحوار[٦].ويذكر العلماء: أن قاعدة القواعد فى النظام الكونى هى حوار الكائنات.وإن جامدة. ليأخذ بعضها من بعض، ويعطى بعضها البعض كما هى طبيعة الحاجة، فيكون الانسجام والشد والعقد والاستمرار.

فالحوار ليس قصراً على الكلمات اللسانية المسموعة. وإنما قد يتجاوز إلى الإشارة الموضحة والبسمة المشرقة، والحس الخافق، والدورة المقابلة، والعمل الصالح، والموقف الصالح حتى الصمت لا يبعد أحياناً أن يتأتى حواراً.

ومن البداهة القول بأن الإنسان كائن عقل واجتماع. كائن علاقة وحاجة، ومن البداهة القول أن هذه الأحوال أحوج حاجاتها اللقاءات المتحاورة، ليكون المجتمع على بينة من أمر علاقاته، وعلى تناسق مؤتلف، وتفاهم واع، وترابط معقود. كما الكون بقوانينه وأنظمته التى تجعله يحفظ بعضه البعض، ويستمر بعضه ببعض[٧]... وهذا أصل مفهوم الحوار.

أما الحضارة ، فإنها مأخوذة من الحضر، والحضر خلاف البدو، والحاضر خلاف البادئ، وفى الحديث:« لايبيع حاضر لباد » الحاضر المقيم فى المدن والقرى، والبادى

---

٦- المصدر السابق، ع٨ ، ص٣٧ بتصرف واختصار.

٧- المصدر السابق، ص ٣٧.

المقيم بالبادية. ويقال فلان من أهل الحاضرة، وفلان من أهل البادية .والحضارة - بكسر الحاء- الإقامة في الحضر، وكان الأصمعي يقول: الحضارة بالفتح. قال القطامي:

فمن تكن الحضارة أعجبته .. فأي رجـال بادية ترانا

والحضارة والحاضرة ، خلاف البادية. وهي المدن والقرى والريف. سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار، ومساكن الديار التي يكون لهم به قرار[٨]. إذن أهل الحضر يوصفون بأنهم أهل القرار كما يقال: قراري للحضري الذي لا ينتجع ولا يتنقل طلباً للكلأ في مواضعه. كذلك يوصف أهل الحضر بأنهم« أهل المدر» وهو قطع الطين المتماسك أو أهل الحجر لأنهم يسكنون بيوتاً متينة ثابتة، خلافاً لأهل الوبر، الذين يسكنون الخيام، من وبر الإبل، أو صوف الغنم، أو شعر الماعز.[٩]

ومفهوم كلمة « الحضارة» مفهوم تطور مع الزمن لاسيما في تاريخ الحياة العربية. ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضر، منذ كانت بادية ومنذ كان حضر .ولكن أول من تصدى لهذا التميز على أساس الدراسة الواعية هو العلامة عبد الرحمن بن خلدون [١٠]. بل إن هذا العالم هو أول من عالج شئون الحضارة العربية بطريقة علمية... ويرى أن الحضارة هي النمط من الحياة المستقرة والذي يناقض البداوة، ويضفي على حياة أصحابه فنوناً منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم، والصناعة، وإدارة شئون الحياة والحكم، وترتيب وسائل الدعة وأسباب الرفاهية[١١].

والحضارة في فكر ابن خلدون« طور طبيعي أو جيل من أجيال طبيعية في حياة

---

٨- ابن منظور، لسان العرب ، الجزء الأول ،ص ٦٥٨.

٩-الدكتورمحمد فتحي عثمان، القيم الحضارية في رسالة الإسلام،ص٩ ،ط. الدار السعودية،٢ ،١٤هـ.

١٠- عبد الرحمن بن خلدون، توفي سنة ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م.

١١- الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص١٧ ،ط. دار اللواء بالرياض،١ ،١٤هـ.

المجتمعات المختلفة وأنها غاية العمران[١٢].. ويقول:« إن الحضارة فى الأمصار من قبل الدول، وأنها ترسخ باتصال الدول ورسوخها. إنها أحوال زائدة على الضرورى من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفة، وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر ،ويقع فيها عند كثرة التفنن فى أنواعها وأصنافها، فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنف منها إلى القومة عليه، والمهرة»[١٣]

والباحث يجد أن مفهوم الحضارة فى العصور المتأخرة قد امتد إلى ألوان من المعنى هى أبعد وأوسع مما رآه ابن خلدون فى عصره، وفى البيئة العربية، وفى انتقالها الاجتماعى والسياسى والمدنى من البادية إلى الحضر . إن لفظ الحضارة فى مفهومه العام والحديث المعاصر بصفة خاصة، قد أصبح أكثر اتساعاً مما يدل عليه اللفظ فى مفهومه اللغوى التقليدى.. ولذا جاء فى المعاجم الحديثة: أن الحضارة هى الرقى العلمى، والفنى، والادبى، والاجتماعى والاقتصادى فى الحضر. وبعبارة أخرى أكثر شمولاً هى : الحصيلة الشاملة للمدينة والثقافة والفكر، ومجموع الحياة فى أنماطها المادية والمعنوية ولهذا كانت الحضارة هى الخطة العريضة كماً ،كيفاً التى يسير فيها تاريخ أمة من الأمم. ومنها الحضارات القديمة الحديثة والمعاصرة ،ومنها الأطوار الحضارية الكبرى التى تصور انتقال الإنسان أو الجماعات من مرحلة إلى مرحلة[١٤]

فالحضارة بكل بساطة، معناها: بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنسانى وتحقيق التقدم من أى نوع كان فى أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعى.

---

١٢- ابن خلدون، المقدمة،جـ١ص ٢١٠ ،٢١٣ ،ط. دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٦٧م

١٣- ابن خلدون ،المقدمة،جـ١ ص ٦٥٦ ،٦٥٧.

١٤- انظر الدكتور أحمد السايح، أضواء على الحضارة الاسلامية،ص ١٨

إن الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزماً واضحاً صادقاً على بلوغ التقدم، ويكرسون أنفسهم تبعاً لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم [١٥]

والحضارة باختصار شديد: هى جملة المظاهر المعنوية التى يخلقها التاريخ والتى تبقى فى المجتمع على مر الأيام دليلاً على القدرات الذهنية المميزة، وتعبيراً عن روح هذا المجتمع والشعب الذى يمثله. ولا شك أن المظاهر المعنوية تأخذ قوالب مادية مختلفة تتجسم فيها تلك المعنويات، وتشكل المظاهر المعنوية فى صور مختلفة كالفنون والآداب والعلوم والمعارف. ومجموع مايتتج عن ذلك كله من تسجيلات ومشاهد فى الآثار والعمائر وأسلوب الحياة وآداب المعاش اليومى.[١٦]

لقد عرف العلماء الحضارة تعاريف متباينة، وتحدثوا عنها من وجهات نظر مختلفة. ولما كانت الحضارة إنسانية النشأة، كان علينا أن نختار من تعريفات الحضارة المتعددة تعريفاً ذكره العلامة الفرنسى« جورج باستيد » جاء فيه: أن الحضارة هى التدخل الإنسانى الإيجابى لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوباً مع ارادة التحرر فى الإنسان ،وتحقيقاً لمزيد من اليسر فى إرضاء حاجاته ورغباته، وانقاضاً للعناء البشرى»[١٧] فالسلوك الإنسانى الذى ينتج الحضارة هو استجابة لتحد من ظروف الطبيعة يكون هو المثير والدافع والحافز للإنسان، كى يتغلب على مايواجهه، ومن ذلك عوامل فى طبيعة الإنسان نفسها مثل حاجاته للطعام ، والشراب ، والدف»، والاستقرار، والأمن، وهناك منافسة الإنسان الآخر على ذلك، ثم مايكون من قصور ظروف بيئته المادية عن تلبية هذه الحاجات.[١٨]

---

١٥- البرت اشفيتسر، فلسفة الحضارة ، ترجمة عن الألمانية الدكتور عبد الرحمن بدوى،ص٥ ،ط. دار الأندلس،بيروت، ١٤٠٠هـ.

١٦- المصدر السابق،ص١٨.

١٧- جورج باستيد، كتاب المدينة، ترجمة عادل العوا،ص ١٢،ط. دمشق.

١٨-انظر المصادرالسابق،ص١١٧ ،والدكتور محمد فتحى عثمان،القيم الحضارية فى رسالة الاسلام،ص١٦.

فالحضارة تحقيق للراحة الإنسانية،في جوانبها المتعددة،المتقابلة المتكاملة، جسدية،وعقلية، ونفسية، وروحية، والسلوك الحضارى هو جواب الإنسان على التحدى المواجه له، تحدى الطبيعة المادية من وجهة، وتحدى حاجاته هو من جهة أخرى، وتحدى الإنسان الآخر أو المجتمع من جهة ثالثة، ويأتى هذا الجواب الإنسانى على التحدى فى صور نشاط متعدد الجوانب، مادى ومعنوى... وهكذا تشمل الحضارة الإنسانية فى شتى مجالات الآداب، والعلوم، والفنون. كما تشمل أيضا صور الانتاج المادى من عمائر وطرق وجسور وقناطر وغيرها.ومن مجالات الحضارة العقائد والعوائد والأدب الشعبى وأدب الخاصة أو الأدب الرفيع والنظم السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية كما لايخرج عنها تخطيط المدن والعمارة ووسائل النقل ، وأساليب المأكل والمشرب والزينة والترفيه.[١٩]

والحضارة على أى حال تمثل كل مظهر من مظاهر الانتاج البشرى. وغالباً مايحددها سلوك الإنسان وطرق معيشته وتفاعله مع البيئة. ولذا كان من الطبيعى أن تختلف كل حضارة فى مظاهرها عن الحضارات الأخرى فلكل حضارة من الحضارات قديمها وحديثها ميزة.[٢٠]

والعقل البشرى استطاع بما اكتسب من خبرة، ودربة، ومرانة. أن يصنف المعارف الانسانية، وأن يحكم ما بينها من وشائج، وأن يستفيد بما بينها من صلات وروابط. والنتائج العلمية متصل بعضها ببعض، ويعتمد بعضها على بعض. والحضارات الإنسانية ليست ملكاً لأمة بعينها، ولا هى وقف على جماعة من الناس. لأنها صرح هائل قد أسهمت فيه كل أمة بنصيب. والحضارات الإنسانية قد تتشابه فى مظاهرها،

١٩- انظر الدكتور محمد فتحى عثمان، القيم الحضارة فى رسالة الإسلام،ص ١٧.

٢٠- انظر الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم،ص٢ ،ط. دار النهضة العربية ،بيروت ١٩٧٩م.

وفى عناصرها، وفى أسلوبها ،ولا سيما إذا تعايشت فى جهات متقاربة. والحضارات الإنسانية سلسلة متينة الحلقات يؤثر سابقها فى لاحقها، ويتأثر حاضرها بماضيها، وينتفع بعضها من بعض.[٢١]

ولقد تواجدات حضارات مختلفة فى الزمان والمكان،وانتفعت من بعضها انتفاعاً أدى إلى تقدمها عند الكثير وتشكل الحضارة مجموع الصفات، والمزايا المشتركة لمجتمع، أو لمجموعة من المجتمعات وهى تتجاوز الثقافة وتغلفها. وهذه الصفات تمثل مجموع الحلول التى أوجدها أو تبنتها مجموعة اجتماعية ما، تندمج بشكل عام، فى جو واسع جداً، ومكان جغرافى طويل جداً من التاريخ.

وتستخدم هذه الأساليب المادية، والتقنية، والمفاهيم لحل جميع المشاكل، التى يطرحها وجود هذه المجموعة: الاتصالات، واصلاح وتوزيع الأراضى، واستثمار الثروات وكذلك الحياة الاقتصادية، والفكرية ،والسياسية، والدينية.

وكل المجموعات البشرية تعمر صدورها الرغبة بالحياة والخلود. وهذا العامل عنصر غير مادى، وهو ضرورى لكل حضارة، لكى تولد ، وتحيا، وتتطور. وجميع العناصر المكونة للحضارة متفاعلة فيما بينها باستمرار وتتطور بوتائر متفاوتة بين السرعة والبطء.

وإن أول مايسترعى انتباه المراقب، الذى ينظر للحضارة من الخارج، هو صفاتها الجمالية. وإدراكها للجمال بشكل عام والأساليب الفنية المعبرة عنه. ولا يخفى أن الحوار الحضارى يتم من أجل الصفات الجمالية فى الحضارة.

وتعتبر المنشآت المادية، والأدوات والتماثيل والكتابات. ذات أهمية خاصة بالنسبة لمفاهيم الجمال فى كل حضارة. ويأتى بعد علم الجمال كل ماله علاقة بالحياة المادية كفن الطبخ،وطريقة التغذية، وصناعة الفخار، والأوانى، والأدوات المنزلية،

---

٢١- انظر الدكتور أحمد السباح، أضواء على الحضارة الاسلامية،ص ١٨.

والمفروشات، والمنشآت والأدوات والالآت والأسلحة حيث يتم الجمع بين الفائدة المباشرة، والصفة الجمالية.

والفاحص المدقق: يجد أن تيار الفكر الحضارى الإنسانى، يتخذ طابعاً واحداً.لا ينحو كثيراً عن تاريخ الإنسان نفسه. فالحضارات والثقافات المختلفة، تتفاعل مع بعضها .فتنتج للإنسان مايشبع حاجته الفكرية والمادية..ولذا فإن الحضارات الإنسانية على مر العصور، تكون كلا متماسكاً. يترابط بنيانه العضوى كحلقات السلسلة الواحدة ،التى لا تنفصم الواحدة منها عن الأخرى.

ولايمكن أن تكون كل حضارة نشأت بمعزل عن غيرها من الحضارات الأخرى. أو أنها لم تتفاعل معها ونظرتنا الأساسية تقوم على أن الحضارات تأخذ وتعطى. تأخذ مايتفق مع طبيعة البنيان العقلى والفكرى للأمة وتعطى ماتجود به نوعيتها ونشاطها الفعال. وبطبيعة الحال، فإن هذا التفسير أقرب إلى فهم روح الفكر، والنشاط الإنسانى المتصل الذى بدأ تاريخه ومسيرته مع بداية الإنسان على هذه الأرض.[٢٢]

ولا يخفى أن النشاط العقلى، والانتاج الحضارى،لابد وأن يستند إلى أدلة ملموسة والأدلة فى هذه الحالة. إما مادية مثل النقوش والمعابد والآثار والمنشآت. وكل شكل الانتاج التكنولوجى. وإما فكرية مثل الوثائق والمؤلفات والكتب والنظريات العلمية. والأراء المدونة كتابة.

أما فيما يتصل بالأدلة المادية. فإنها اهتمام التاريخ وباحثيه، وعلماء الآثار، ودارسيها. فدراسة هؤلاء تفسير الحضارة الإنسانية بالأدلة المادية التى تميز حضارة من الحضارات عن غيرها. على حين أن الفلاسفة ومؤرخى العلم يهتمون بصورة أساسية بالنشاط الفكرى، والنظريات والآراء وتطور الأفكار التى يقومون على تحليلها ونقدها ثم محاولة تفسيرها من خلال عملية التركيب المنطقى للوقوف على الفلسفة الكامنة فى باطن الفكرة نفسها.

---

٢٢- الدكتور ماهر عبد القادر محمد. المشكلة،ص١٦٦ط. دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥.

## الإسلام والحضارة

إن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه خليفة فى الأرض. قال تعالى:« إنى جاعل فى الأرض خليفة »[٢٣] وقد فضل الله الإنسان وكرمه وضح ذلك فى قوله تعالى:« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثر ممن خلقنا تفضيلاً »[٢٤]

وهذه الكرامة التى اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة .فهى حماية إلهية للإنسان وتنطوى على احترام حريته،وعقله، وفكره، وإرادته.

وهذه الكرامة تعنى فى النهاية الحرية الحقيقية. وهى تلك الحرية الواعية المسئولة التى تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسئولية. التى أشار إليها القرآن فى قوله تعالى:« إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان »[٢٥]

وإذا كان الله اختص الإنسان بالتكريم، وجعله مكلفاً ومسئولاً. فإنه من ناحية أخرى قد خلق الله له هذا الكون بما فيه ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية على السواء.

يقول الله تعالى:« وسخر لكم مافى السموات وما فى الارض جميعاًمنه. إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[٢٦]

والتفكير الذى تنص عليه الآية هنا أمر جوهرى لاينبغى أن يغيب عن الأذهان.[٢٧]

---

٢٣- سورة البقرة، الأية٣٠.

٢٤- سورة الإسراء، الأية رقم ٧٠.

٢٥- سورة لأحزاب ، الأية رقم ٧٢.

٢٦- سورة الجاثية، الأية رقم ١٣.

٢٧-الدكتور محمود حمدى زقزوق، دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى،ص٩ط. مكتبة وهبة بالقاهرة.

فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون،فلا يجوز له أن يقف منه غير اللامبالاء،بل ينبغى عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفاً إيجابياً. وايجابيته تتمثل فى درسه، والنظر فيه، للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير.

والاستفادة من كل هذه المسخرات فى هذا الكون،لاتكون إلا بالعلم والدراسة والفهم.

والنظر فى ملكوت السموات والأرض على هذا النحو سيؤدى إلى الرقى المادى وفى الوقت نفسه، إلى الرقى الروحى.[٢٨] والحضارى.

والحضارة الإسلامية هى عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها: إنسانياً، وخلقياً، وعلمياً، وأدبياً وفنياً، واجتماعياً، وفق منهج الله وشريعته.

وبناء على هذا المفهوم. فإن المجتمع الإسلامى-وهو المجتمع الذى يطبق شريعة الله فى كل جوانب الحياة-هو وحده المجتمع المتحضر. والمجتمع المتحضر[٢٩] هوالذى تكون القيم الإنسانية، والأخلاق الإنسانية التى تقوم عليها،هى السائدة فيه. وهذه القيم هى التى تنمى خصائص الإنسان، وهى التى تميزه عن غيره من المخلوقات.[٣٠]

وهذه القيم إنما هى قيم إنسانية ذات ميزان ثابت. وهى مقررة فى الشريعة الاسلامية منذ جاءت وما على الإنسان إلا أن يمضى فى بنائها وصيانتها فى كل المجتمعات التى يقيمها حضرية كانت أم بدوية، صناعة كانت أم زراعية. فالمهم فى كل الأحوال،هو الإرتقاء صعداً بالخصائص الإنسانية وحراستها من النكسة إلى الحيوانية التى تؤدى إلى التخلف.

---

٢٨- الدكتور محمود حمدى زقزوق، دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى،ص٩ط. مكتبة وهبة بالقاهرة.

٢٩- الدكتور على أحمد مدكور، الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى، مجلة الدارة ص ٥٢ السنة ١٤، السعودية ١٤٠٩هـ.

٣٠- سيد قطب، معالم فى الطريق، ص ١٣١، ١٣٣.

إن الحضارة الإسلامية تقوم بهذه القيم ، وبهذه الأخلاق، فى كل مكان، وفى كل بيئة. أما أشكالها وصورها المادية،فهى كثيرة، ومتنوعة.لأنها فى كل بيئة تستخدم المقدمات والمعطيات الموجودة بها فعلاً، وتنميها وفقاً لميزان الله الثابت، وقيم الانسان المقررة فى شريعة الله.(٣١)

فالإسلام حين يدخل المجتمعات البدائية ينشئ الحضارة المناسبة لهذا المجتمع. وحين يدخل المجتمعات المتقدمة صناعيا أو زراعيا أو غير ذلك. فإنه يستخدم كل مالديها من معطيات ويقيم حضارة هذه المجتمعات مستفيداً بمالديها.

وإذا كان هذا هو مفهوم الحضارة الإسلامية. فإن التخلف الحقيقى-فى مفهوم المجتمع الإسلامى المتحضر- هو تحويل منجزات العلم الهائلة إلى قوى باغية للتدمير والتسلط، وتسخير إمكانيات العلم غير المحدودة فى نشر الفوضى والعادات غير الخلقية ، بدلاً من استخدامها فى إعلاء القيم الإنسانية، وفى خدمة الإنسان دون بغى أو ظلم أو تحكم أو إبادة.

إن مهمة العلم فى مفهوم المجتمع الإسلامى المتحضر ليست قهر أو الانتصار عليها.بل التلطف مع الطبيعة، والجد فى اكتشاف قوانين الله فيها.(٣٢)

وإذا كان هذا هو عمل الإسلام حينما ينشئ حضارة. فإن هذه الحضارة التى دعا إليها الإسلام، تتميز بأنها منفتحة الحدود الفكرية ، والنفسية، والمادية والنصوص الإسلامية التى تعلن هذه الحقائق كثيرة منها:

- عن أبى هريرة- رض يالله عنه- أن النبى - صلى الله عليه وسلم- قال:« ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة »(٣٣)

---

٣١- المصدر السابق، ص ١٣١.

٣٢- الدكتور على أحمد مدكور، الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى،مجلة الدارة،عدد رقم٤،ص٩٩،س١٤.

٣٣- رواه مسلم.

- وعن أبى هريرة -رض يالله عنه- قال:« قال رسول الله صلى اله عليه وسلم:« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له »[٣٤]

- وعن ابن مسعود قال. قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- :« لاحسد إلا فى اثنتين رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها يعلمها »[٣٥]

- وقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-:« الحكمة: الإصابة فى غير النبوة »[٣٦]

-وقال صلى الله عليه وسلم:«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها » [٣٧]

ويقول ابن رشد :« إن إلفينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظراً فى الموجودات واعتباراً لها بحسب اقتضته شرائط البرهان.أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك، وما أثبتوه فى كتبهم.فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به ، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه، وعذرناهم»[٣٨].

وسيراً فى ضوء هذا المنهج الإسلامى وجدنا العصور الذهبية للمسلمين تفتح صدورها لامتصاص المعارف الإنسانية المادية التى خلفتها فى الأمم والشعوب، وحضارات سالفة[٣٩]

---

٣٤- رواه مسلم

٣٥- متفق عليه.

٣٦- رواه البخارى.

٣٧- رواه الترمذى وابن ماجه.

٣٨- ابن رشد، فلسفة ابن رشد، فصل المقال،ص ١٧ ،ط. دار الآفاق الجديدة ،بيروت،٢، ١٤٠٢هـ١٩٨٢

٣٩- عبد الرحمن حسن حنبكه الميدانى، أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها،ص١٢٢ ،ط. دار القلم،دمشق ١٤٠٠هـ

**اللقاء الحضارى :**

اللقاء الحضارى الإسلامى ، مع حضارات الأمم المختلفة، تم بناء على : أن العالم هو أقرب مايكون إلى « منتدى» عالمى لحضارات متميزة، تشترك أممها فى عضوية هذا المنتدى. ومن ثم فإن بينها ماهو« مشترك حضارى عام». وأيضا فإن هذه الأمم تتمايز حضارياً[٤٠] الأمر الذى يستدعى الحفاظ على الهويات الحضارية المتميزة لا لمجرد الحفاظ عليها ، رغم أهميته ، إنما لأسباب وطنية، وعقدية، تلعب دورها.فى إنهاض أمم كثيرة من كبوتها وتراجعها.لما لهذه الخصوصيات من قدرات على شحن شعوب هذه الأمم بالكبرياء المشروع، والطاقات المحركة ،فى معركة الإبداع ولما للتعددية الحضارية من دور فى إثراء مصادر العطاء العالمى.[٤١]

والذين يعايشون حياة الشعوب والأمم ذات الحضارات الغنية، والتاريخ القديم، والتراث العريق، أو يغوصون فى تراث هذه الأمم وفلسفتها ، ومذاهبها ، وتقاليدها ، وأعرافها. يدركون أن العالم الإنسانى به أمم متعددة، تتميز كل منها بشخصيتها القومية، والحضارية المتميزة.

وإننا إذا نظرنا فى مذاهب هذه الأمم وأعرافها ، وفى معايير الحلال والحرام، والمشروع والممنوع لدى أبنائها ، وفى موازين الأذواق والحاسة الجمالية، وفى تصوراتها لمكان الإنسان من الكون، وتصوراتها لمصيره بعد الموت، وتصوراتها الفلسفية لهذا الكون، وما وراء المادة والطبيعة،،إذا نحن نظرنا إلى مذاهب هذه الأمم، فى هذه القضايا الأمهات. أدركنا السمات التى تمايز بينها- جنباً إلى جنب مع سمات تشترك فيها ، فتجمع بينها.[٤٢]ولا يخفى : أن الباحث الذى يسبر أغوار المواريث الفكرية

---

٤٠- الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص٨.

٤١- المصدر السابق، ص ٧.

٤٢- انظر الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة،ص٨ . ٩.

لهذه الأمم، ويتتبع خيوط هذا التمايز الحضارى يجد أنها تضرب بجذورها فى أعمق أعماق التاريخ. حيث كان البابليون، والأشوريون، والفينيقيون، والمصريون وغيرهم ممن أسهموا الفكر الإنسانى، وكان لهم تمايز حضارى.(٤٣)

ولعل نظرة فاحصة،الى أمم الفرس والصين... والهند... واليابان. ستفضى بالباحثين إلى الإجتماع، على حقيقة تميز الشخصيات القومية، والمواريث الحضارية، وطرائق العيش، والفلسفة، والحياة، وفى النظرة للكون وتصوره، لدى شعوب وأمم هذه الحضارات.

وكذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية، منذ اليونان، وحتى نهضتها الحديثة، والحضارة الإسلامية منذ تبلورها كثمرة لاندماج المواريث القديمة للشعوب التى دخلت الإسلام-بعد الإحياء لهذه المواريث- كثمرة لاندماج هذه المواريث فى الفكر الإسلامى، الذى استصفاها وطورها وفقاً لمعاييره.(٤٤) حيث لم يكن المسلمون مجرد نقله. ولكن إضافاتهم للأصول التى نقلوا عنها تشهد بأنهم زادوا، وابتكروا. لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الحضارات التى أخذوا عنها، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الاسلامية.(٤٥)

إذن لابد من التصور الذى يقوم،على أن الفكر إذا نظرنا إليه،على المستوى العالمى الإنسانى،وجدنا فى هذا الفكر،« ماهو مشترك إنسانى عام» لا يختص بحضارة بذاتها. وفى هذا الفكر أيضا مايتميز بالخصوصية والاختصاص.

---

٤٣- راجع الدكتور أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية،ص٧٨،ط. دار اللواء بالرياض،١٤٠١هـ١٩٨١م.

٤٤- انظر الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة،ص٩، بتصرف.

٤٥- انظر الدكتور توفيق الطويل، الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية،ص ١٥١ط. مكتبة التراث الإسلامى، مصر ١١٩٠م

والتميز فى الفكر بين ماهو مشترك إنسانى، وبين ماهو خصوصية حضارية. إنما تحكمه وتحدده معايير موضوعية.

فكل العلوم التى تكون الطبيعة موضوعها وظواهرها، والمادة وخصائصها، هى من قبيل الفكر، الذى هو مشترك إنسانى عام. وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمى، ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية، هى السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم. تلك الحقائق التى هى بنت الدليل، والتى لاتختلف باختلاف مذاهب ،وعقائد، وأجناس ، وفلسفات المكتشفين. ومن ثم فهى لاتتغاير بتغاير القوميات، والحضارات. بل هى واحدة على المستوى الإنسانى .كما أن موضوعاتها- المادة وظواهرها-واحدة هى الأخرى.لاتختلف ولاتتغاير باختلاف، وتغاير الحضارات. فعلوم مثل الرياضيات بفروعها، ومثل الكيمياء، والطبيعة، والطب،والجيولوجيا.لم ولن تختلف مناهجها، وحقائقها، وقوانينها باختلاف الحضارات.قد تتمايز وظائف استخدام قوانينها، ونظرياتها ومكتشافتها.لكن حقائق علومهاأى «فكرها العلمى» سيظل واحداً، مهما اختلفت المذاهب، والعقائد والحضارات.[٤٦]

ويلحق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها، على نحو ما والى حد كبير.. العديد من ثمرات التجارب الإنسانية فى الوسائل، والنظم، والمؤسسات، والخبرات. التى ترشد أداء الإنسان وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد والغايات.

فعلى الرغم من تمايز المقاصد والغايات والمثل. فإن تجارب الإنسانية فى الوسائل، والنظم، والمؤسسات. قد تكون صالحة فى أحيان كثيرة للإقتباس- مع التطويع- والتمثل، والاستلهام.

---

٤٦- انظر الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ص ١٦..

إن العناصر الخارجية ضرورة حتمية، لاتستغنى عنها أى حضارة ،مهما سمت وارتفعت. إنها تمتزج لتكون وإياها صيغة جوهرية تختلف من تراث إلى آخر. وهذه العناصر الخارجية تأتى بطريق الاقتباس الادارى المباشر المقصود. والاقتباس والنقل، عملة متداولة بين الشعوب قاطبة . فكل حضارة أبدعت ونقلت وأخذت وأعطت ، ولا توجد قط حضارة أبدعت ولم تنقل. فالنقل ليس وباء وإنما هو غذاء، والاستعارة ليست عاراً وإنما هى فخار.

فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والآراء، والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هى ظاهرة صحية طبيعية سليمة، لا خطر ولا خوف منها[٤٧]

والعرب هم وارثوا الحضارات القديمة، إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة. فقد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم.

ففى الشمال ازدهرت حضارة مابين النهرين ،حضارات الإغريق ، والكنعانيين، والآراميين، وجزر بحر إيجه.

وفى الغرب ازدهرت حضارة المصريين القدماء، وفى الشرق كانت الحضارة الفارسية، ومن ورائها الحضارات الأسيوية الأخرى . وفى الجنوب كانت حضارة اليمن.

وكانت القوافل العربية دائبة الحركة بين مراكز هذه الحضارات ، عند أطراف الصحراء تنقل البضائع والسلع، وكان لابد أن تتحرك المعارف والثقافات مع السلع والبضائع، وأن تختلط هذه الثقافات مع السلع والبضائع، وأن تختلط هذه الثقافات وتتراوح فى حركة بطيئة ولكنها ثابتة مستمرة. وأن يؤدى كل ذلك إلى تصفية الأفكار والمعارف وتقدمها تبعاً لهذا الاختلاط والتزاوج.[٤٨]

---

٤٧- انظر الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا، أصالة الفكر العربى،ص ١٥٢ ، منشورات عويرات١٩٨٢، بيروت فرنسا.

٤٨-المصدر السابق،ص ١٦٤.

فى هذا الجو جاء الإسلام. انه لم ينتشر فى فراغ. فالأمم التى صادفها أو اتصل بها، فى حركة المد الكبيرة أو تلك التى اعتنقته ودانت به. أمم عرفت حضارات شتى، وثقافات متنوعة، ومرت بتجارب روحية، وخبرات مادية متعددة.

وكان اختلاط العرب بهذه الأمم اختلاط قتال وحروب ومعارك أولا. ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك. ومن هنا كان التأثير والتأثر. ومن هنا كان التفاعل والاخصاب، وكان الأخذ والعطاء، وتبادل الأفكار والآراء.

وبذلك فقد عرف العرب حضارة الهند، وحكمة فارس، وفلسفة اليونان، واختلط المسلمون بأقوام تنوعت عقائدهم، وتشعبت آراؤهم. وصادفوا مئات المفكرين والباحثين والمثقفين، واتصلوا بأصناف من الأفراد والجماعات لاتدخل تحت حصر. وشاع التزاوج والإصهار وتفاعلت العادات والتقاليد والآراء والأفكار والمذاهب والمواقف والعلاقات. وجاءت وحدة الدين لتعطى هذا التفاعل صبغة فريدة. ونتج عن ذلك مزاج فكرى واجتماعي وروحى جديد. أعطى الحضارة الإسلامية معناها ومبناها.[٤٩]

وكلما ذهبنا نبحث فى حضارات الأمم. وجدنا أن اللقاء والتفاعل الحضارى، الذى عرفه التاريخ بين الحضارات العريقة المالكة لما هو « مشترك» ولما هو « خاص» قد تم وفق أن هناك « ماهو مشترك إنسانى عام» وهناك ماهو خاص.

فالتقاء الحضارات- وهو معلم من معالم التاريخ الحضارى للإنسانية. وتفاعل هذه الحضارات عندما تلتقى- هو قدر لاسبيل إلى مغالبته أو تجنبه. لكنه تم دائما وأبداً، وفق هذا القانون الحاكم، التمييز بين ماهو مشترك إنسانى عام، تفتح له الأبواب والنوافذ، بل ويطلبه العقلاء، ويجدون السعى فى تحصيله، وبين ماهو خصوصية حضارية. يدققون- فى حذر- قبل استلهامه وتمثله. ويعرضونه على حضارتهم ، لفرز

---

٤٩- المصدر السابق ، ص ١٦٤.

ما تقبل منه ويتمثل ،من ذلك الذى يرفضونه. لما فيه تناقض مع هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتقادية.[٥٠]

ويستطيع الباحث فى الحضارات، أن يضرب مثالين على تفاعل الحضارات والتقائها فى أخذ وعطاء وفق « ماهو مشترك إنسانى عام» وماهو خصوصية حضارية».

**المثال الأول :** لقاء الحضارة الإسلامية بالحضارة الفارسية، والهندية ، واليونانية.

**والمثال الثانى:** لقاء الحضارة الغربية إبان نهضتها بالحضارة الإسلامية.

### لقاء الإسلام بحضارات الأمم

أما المثال الأول الذى يقوم على لقاء الحضارة الإسلامية وتفاعلها مع الحضارة الفارسية، والبونانية، والهندية، فإن المدرك لأبعاد هذا اللقاء والتفاعل، يلحظ بوضوح أن المسلمين لم يكونوا يومئذ أخلاء من أى تفتح عقلى، إذ كانت نواة التفكير فيهم قد تكونت. كما كانت بين أيديهم نظرية كونية شاملة أمدهم بها القرآن . فكانت بمثابة العمود الفقرى لكل تفكير عقلى، وتحرك عملى وعلمى.

ولهذا أقبل المسلمون على حضارات الأمم يمتصون بسرعة فائقة ماخلفه الفرس من حكم وآداب وخبرات سياسية، وما خلفه اليونان الإغريق من علوم فلسفية وعقلية، وما كان لدى مختلف الأمم التى التقت مع المسلمين ،لقاء مودة، أو لقاء خصام.

لقد قام المسلمون بتحرير هذه العلوم، وتنقيحها من الشوائب، وتطويرها، وتنميتها، وصقلها، وإصلاح فاسدها. مسترشدين بالمنهج العلمى العام، الذى رسمه للمسلمين مصدرا التشريع الإسلامى العظيمان: القرآن والسنة...كل ذلك فيما لم يكن

---

٥٠- الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة،ص٥٠ ٢بتصرف،ط.الأزهر١٩٨٨م

من خصائص الشريعة الأسلامية بيانه، وتحديد أصوله وفروعه، كأصول الاعتقاد، وأحكام العبادات، وأحكام المعاملات، ونظم الحياة الفردية والاجتماعية التى رسم الإسلام للناس طريقها، وأوضح لهم صراطها المستقيم.[٥١].

إن الدولة الإسلامية الجديدة التى عملت على نشر الإسلام فى الممالك المختلفة، والتقت بحضارات الأمم لم تأخذ من الحضارات إلا لكى تعطى..إنها لم تقبل التراث الفكرى اليونانى وغير اليونانى.إلا لكى تهضمه بعقليتها الجديدة، وتتمثله بمنطق تفكيرها، وروح عقيدتها، وبكل أصالة تاريخها وخصبه، وتردده بعد ذلك أضعافاً مضاعفة.

فقد أقبل المسلمون على علوم اليونان، والهنود، وأصحاب الحضارات القديمة، يعترفون منها ما كان فى وسعهم أن يغترفوا. ولكن تلك العناصر التى التهموها قد تحولت على أيديهم لتكون غذاء جديداً. [٥٢]

إن العلماء المسلمين وهم يستوعبون نتاج الحضارات القديمة والمذاهب والأفكار، ويستعينون بها فى عملية البناء. كان رائدهم فى ذلك البحث عن الحقيقة لذاتها و«الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها».

لقد أخذ المسلمون ماأخذوا لأنهم طلاب حقيقة وهذا حسبهم، إنهم لم يقدموا على النقل والاقتباس للتجمل والزينة، وليباهوا الناس بكثرة الأحجار الكريمة، والأساور والعقود، و الخلاخيل، بل لبناء الذات، واستدارك ما فات ، واستكمال أسباب الحياة.

---

٥١- عبد الرحمن حسن حنبكه الميدانى.أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها،ص١٢٢ط. دار القلم، دمشق،بيروت- ١٤٠٠هـ.

٥٢- الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا. أصالة الفكر العربى،ص ١٦٧.